نقد ترجمة القرآن إلى الفرنسية
في ضوء المنهج السياقي
ترجمة جاك بيرك نموذجا

عبد الجبار توامة
المركز الجامعي بالأغواط

لقد ظهر النقاش والجدل في قضية مشروعية ترجمة القرآن الكريم منذ القديم لدى فقهاء المسلمين خاصة ، فمنهم من أباح هذه الترجمة بدعوى أنّ دعوة الإسلام المضمّنة في القرآن يجب أن تبلّغ لغير العرب بلغاتهم ، لأنه ليس بمقدور هؤلاء الأقوام قراءته وفهمه بلسان العرب ، وذهب بعض هذا الفريق إلى أن ترجمته واجبة لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ومن الفقهاء من منع ترجمة القرآن بدعوى أنه معجز بلفظه ومعناه فليس في الوسع محاكاته بترجمته إلى لغة أخرى ، فضلا عن أن ترجمته قد تؤدّي إلى تحريف معانيه بسبب سوء الفهم أو الخطأ في التفسير .

وامتدّ هذا الجدل في هذه القضية إلى مفكّري الإسلام في عصرنا هذا، فظهرت الفتاوى والدراسات التي تحرّم أو تجيز ترجمة القرآن ، فعلى سبيل المثال نشير ههنا إلى دراسة للشيخ رشيد رضا بعنوان : (ترجمة القرآن وما فيها من المفاسد ومنافاة الإسلام) حاول فيها إقامة البراهين على حرمة ترجمة القرآن لعدم إمكانها ، وفي مقابل مثل هذا الرأي ظهرت دراسات أخرى تدافع عن إمكان ترجمته ومن ثم جوازها ، فنشير ــ مثلا ــ إلى دراسة لفريد وجدي نادى فيها بضرورة ترجمة القرآن ترجمة صحيحة ودقيقة وكاملة لمجابهة المحرّفين ، وفي مصر انتصر الأزهر لفكرة جواز ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية.(1)

ولم تكن لتَعْنِيَ مسألة مشروعية ترجمة القرآن المستشرقين في شـــيء ، فقـــد بـــدأ الغربيون دراسة العربية في أديرة الرهبان ، وكان هذا أوّل عمل وأهم خطوة في مجـــال ترجمة القرآن ، إذ شرعوا بعدها في ترجمته لا للاطلاع عليه بل لمحاربته ، فكـــانت أوّل ترجمة للقرآن باللغات الأوروبية باللاتينية في دير كلوني بفرنسا للراهب بيار فينرابل سنة 1143م ، ثم توالت بعدها الترجمات الكثيرة التي سلك أصحابها فـــي معظمـــها التحويـــر والتحريف في النقل فضلا عن القصور الشديد في نقل المعنى بســـبب جهلـــهم بأســـاليب العربية وخصائصها ، وترجم كثير من هؤلاء بأسماء مســـتعارة ، وحبّـــذ المستشـــرقون المغرضون نشر الترجمات المضلّـــلة ، لأنهم كانوا يعدّونها وسيلة مهمّة لتشويه الإســـلام ومحاربته .(2)

ولم يكن جميع المستشرقين الذين تصدّوا لترجمة القرآن مغرضين مضلّـــلين ، بـــل وجدت منهم فئة منصفة قصدت البحث العلمي وخدمة الحقيقة واتّسم عملها بالموضوعية، ومن هؤلاء في العصر الحديث الفرنسيان رجيس بلاشير وجاك بيرك ، فقد حاول هـــذان المستعربان نقل فحوى النصّ القرآني إلى الفرنسية بدقّـــة وأمانة ، مستعينين فـــي ذلـــك بمعرفتهما الجيّدة للغة العربية والتراث العربي الإسلامي ، وما قد يلاحـــظ مـــن أخطـــاء وهنات في ترجمتهما ربما قد يرتد ــ كما سنبيّن بعد حين ــ إلى قصـــور فـــي المنـــهج الترجمي الذي اتبعاه .

ــ إشكاليـــة ترجمـــة القـــرآن :

القرآن الكريم وحي من عند الله بلفظه ومعناه،وعلماء الإسلام في بحثهم لقضية الإعجـــاز القرآني منذ القديم أرجعوا إعجازه الباهر إما إلى اللفظ وإما إلى المعنى وإما إليهما معـــا، والرأي الأخير هو الذي تطمئن إليه أنفس أغلب الدارسين باعتباره يعبّر حقيقة عن واقـــع النص القرآني الذي يتّـــسم بروعة لا نظير لها في الأداء اللفظي،وباشتماله على مضـــلمين ودلالات خاصّة تستعصي أحيانا على محاولة تأديتها بلفظ آخر غير لفظها، وتمتنع أحيانا

أخرى حتى عن التفسير الدقيق أو التأويل الصحيح كما في القسم المتشابه من القرآن الذي قال عنه منزله عزوجل:(وما يعلم تأويله إلا الله)(آل عمران7)، وكثيرًا ما وقف كبار المفسّرين العرب حيارى أمام لفظ أو تركيب أو آية من القرآن كيف يعبّرون عنه بلفظ آخر أو كيف يكشفون عن سرّه أومعناه ، ولهذا شاع لدى بعض المفسّرين تذييل تفسيرهم للفظ أو آية من القرآن بعبارة : والله أعلم ... ، ومن يرجع إلى تفسير الطبري ــ وهو أمّ التفاسير القديمة والمصدر الأصلي لمعظمها ــ يلاحظ بجلاء اختلاف التأويلات للفظ الواحد أو الآية الواحدة لدى من سمّاهم الطبري بأهل التأويل من الصحابة أو التابعين أو تابعي التابعين.

والسؤال (الإشكال) الذي يطرح نفسه ــ منطقيا كما يطرح نفسه معرفيا ولغويا كما وضّحنا آنفا ــ : إذا كان القرآن (كتاب الله) لفظا متّحدا مع معنى كوجهي الورقة الواحدة، أي أنّ القرآن بلفظه ومعناه ، فكيف يجوز نقل أو ترجمة معناه دون لفظه الذي يعطيه خصوصيته بوصفه وحيا إلهيا مقدّسا، أوّلا وقبل كل شيء ؟ ومن تصوّر هذا الإشكال نفهم مغزى التحدّي الذي تضمّنه القرآن نفسه بأن يأتي الجن والإنس مجتمعين بمثل هذا القرآن أو بعشر سور أو حتى بسورة منه ، وهذا التحدّي يشمل الإتيان بمثل القرآن بلغته العربية ــ ولكن بلفظ آخر ــ أو بأيّ لغة أخرى ، بدليل أن الخطاب وُجّه لمعشر الجن والإنس كما في الآية:(**قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**) (الإسراء88) ، الإشكال بتعبير آخر : القرآن وحي من عند الله لاينفكّ لفظه عن معناه ، وإعجازه على هذا يشمل لفظه ومعناه لافصل أبدا، فكيف يمكن من ثم محاكاته أو نقله أو ترجمته بعبارات بشرية مهما كانت بلاغتها ؟

وقد أدرك حفيفة هذه الإشكالية الأستاذ محمود محمد شاكر في مقدمته لـ(الظاهرة القرآنية) للأستاذ مالك بن نبي ، عندما ذكر أن البشر إذا لم يكن في طاقتهم بألسنتهم التي يبدعون في شعرها ونثرها أن يأتوا ببيان كبيان القرآن تدانٍ تلاوته على أنه بيان مفارق لبيان بشر ، فمن طول السفه وغلبة الحماقة أن يدعى أنه يستطيع أن يترجم القرآن فيأتي

في الترجمة ببيان مفارق لبيان البشر ، فإذا لم يكن ذلك في طاقة أحد ، لـــم يكـــن لـــهذه الترجمة معنى بل سيكون فيها من القصور والتخلف ما يجعل القرآن كسائر الكلام لا آيـــة فيه ولا حجة على أحد من العالمين ، ولا توجب ترجمته على أحد أن يؤمن بما فيه.

والحلّ الذي يطرح إزاء إشكالية ترجمة القرآن هذه لا ينبغي أن يقف عند القناعة بـــأن ترجمة القرآن وفق ما تقدم بيانه مستحيلة ، ثم يترتّب على ذلك عدم الخوض فيـــها بـــأيّ شكل من الأشكال ، هذا حلّ عدمي ينفي ضرورة الاقتباس من القرآن باللغـــات الأخـــرى وإنْ في إطار تبليغ مايمكن تبليغه من مضامين النصّ القرآني وفق فهم ــ وإن كان نســبيّا ــ للشعوب غير العربية ، وهذا يعني ببساطة ومباشرة ومن دون تلميـــح أو مواربـــة أن التّرجمة إذا قبلت مبدئيا ستكون قطعا للمعنى الذي يفهمه المترجم من نصّ الوحي المغلـــق عن أن يترجم إلى لغة أخرى طبق الأصل ، وبتعبير آخر ستكون أيّ ترجمـــة مزعومـــة للقرآن هي ببساطة محاولة لتفسيره ــ أي نقل معانيه ــ بلغة أخرى ، وهو مايسمى باللغة الفرنسية : (interprétation)، وقد وعت المترجمة الفرنسية الدكتورة ماســـون - التـــي عاشـــت فـــي المغـــرب - هـــذة الحقيـــقة، فسمـــّت محاولتـــها لتـــرجمـــة القـــــرآن: (essai d'interprétation du coran intraduisible) ، أي محاولة لتفســـير القـــرآن غير القـــابل للترجمـــة. وكذلك وعـــى جـــاك بيـــرك هـــذه الحقيقة شيئا مـــا، فســـمّى ترجمتـــه للقـــرآن :(essai de traduction de l' arabe) ، فهو ــ وإن سمّى عملـــه ترجمة ــ قد أضاف إليه كلمة (محاولة) إشارة إلى أن عمله هذا ليس كاملا وأنه مجـــرّد **قراءة** بالفرنسية للقرآن، معترفا في مقدمـــة ترجمتـــه بالطابـــع المتجـــدّد لهـــذا النـــصّ القـــديم إذ يقول:(Cette parole antique et toujours nouvelle...)(3).

وهذا يعني أن أيّ ترجمة مزعومة للقرآن الكريم إلى الفرنسية لا يمكـــن وصفـــها البتّـــة بأنّها القرآن بالفرنسية، مهما كانت دقتها ومهما بذل فيها من جهد جماعيا كـــان أو فرديا، بل إنه لا يمكن وصفها إلا بأنها تفسير للقرآن بالفرنسية، وينسحب ذلك على أيّ لغة أخرى، وهذا ــ كما نحسب ــ أمر بديهي لأن ترجمة أيّ مترجم لأيّ آية قرآنية هي في

الواقع ترجمة لفهمه هو لتلك الآية، والفهم ههنا نسبيّ، فهو قد يخطئ وقد يصيب فهمُه نسبيًا، وكثيرًا ما يخطئ، لاسيّما إذا تعلّق الأمر بفهم أسرار التقديم أو الزيادة أو الصور البيانية أو المجاز وغير ذلك من صور الكلام البليغ.

وقد يقول قائل : ما بال النصوص الأدبية البليغة كالقصائد الشعرية تتمّ ترجمتها بنجاح وروعة نظما لا نثرا ؟ الجواب ببساطة : أن الشعر إبداع بشري وقد يعيد شاعر مترجم إنتاج شعر غيره بلغة أخرى ،كما فعل أحمد رامي عندما ترجم رباعيات الخيّام الفارسية إلى العربية، فنحن هنا إزاء إبداع بشريّ هو الشعر ينقل إلى إبداع بشريّ مثله، والتطابق هنا لا يكون تاما بينهما لأن وراء كل لغة أو نسق خطابا ، وقد يكون التقارب شديدا بينهما لأنّ مصدرهما هو البشر ، أما الوحي الإلهي (القرآن) فشيء آخر ، فهو ــ وإن أنزل بحسب سنن العرب في كلامها ــ ليس كالشعر ولا حتى كالنثر العاديّ.

ــ القرآن والمعنى والسياق :

لعلّ ملاحظة علماء القرآن قديما : أن أفضل طريقة في تفسير القرآن ــ مفردات وتراكيب ــ هي تفسير القرآن بالقرآن(4) ، تشير في الجانب الأهمّ منها إشارة قويّة إلى ما أصبح يعرف اليوم في البحث اللغوي الدلالي بـ (السياق اللغوي) ودوره الحاسم غالبا في تحديد المعنى ، إذ تتفق اللسانيات المعاصرة في معظم اتجاهاتها على أن علاقات الكلمة ضمن الخطاب مع الكلمات الأخرى هي التي تحدّد معنى الكلمة (5) ، ولهذا صرّح زعيم هذه المدرسة فيرث بأن المعنى لاينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية أي وضعها في سياقات مختلفة (6). وعلى هذا فدراسة معاني الكلمات تتطلّب تحليلا للسياقات والمواقف التي ترد فيها، ومعنى الكلمة ــ على هذا ــ يتعدّل تبعا لتعدّد السياقات التي تقع فيها (7).

هذا، ونجد لدى قدمائنا إدراكا واضحا لأهمية السياق في تحديد المعنى، فهذا ابن القيّم الجوزية يقول عن السياق :(يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام وتقييد المطلق، وتنوّع الدلالة، وهذه من أكبر القرائن الدالة

على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته) (8)، فهذا الكلام وعي قويّ بقيمة السياق الكبيرة ــ بما يحمله من قرائن ــ في تحديد المعنى المراد والقطع بعدم احتمال غيره، وهو تلخيص لأحد أهم المناهج في التفسير لدى مفسّري القرآن القدامى الذين كانوا كثيرا ما يعتضدون بالسياق في بيان معنى أو تخصيص مطلق لاسيّما في آي القرآن التي يدقّ فيها المعنى أو يُشْكِل فيها المقصود، وقديما قال علماء القرآن :(من أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أوّلا من القرآن، فما أجمل منه في مكان فقد فسّر في موضع آخر) (9) ، وهذا القول إشارة إلى السياق الأكبر في القرآن، الذي هو المقصود أوّلا من المقولة الذهبية للمفسرين: " **القرآن يفسّر بعضه بعضا** "، وهذا إضافة إلى السياق الأصغر وهو سابق الآية موضع التفسير ولاحقها من الآيات التي غالبا ما تحدّد الفهم الدقيق لتعلقها بها .

ويجسّد أوضح تجسيد فكرة أهمّية السياق في علم التفسير لدى القدماء ما يسمى عندهم بعلم مناسبة الآيات والسور (أو علم السياق القرآني) ، والمناسبة هي المشاكلة والمقاربة ، ومرجعها في آيات القرآن ونحوها إلى معنى رابط بينها ،عامّ أو خاصّ ،عقليّ أو حسّي أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني ، كالسبب والمسبب والعلّة والمعلول والنظيرين والضدّين ونحوه، وفائدة ذلك جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء (10)، المنسجم النظم والتأليف ، ولهذا كان الأصل في آي القرآن وسوره أن يكون بينها مناسبة أو تناسب في الغرض أو في الانتقال منه أو نحو ذلك من أساليب الكلام المنتظم المتصل ، فالقرآن كتاب أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير ، والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أوّلَ كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة ، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ؟ ففي هذا علم جمّ ، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له. (11) وعلى الرغم ممّا قد يوجد من استثناءات توحي بعدم المناسبة فإنه كان

حقّا على المفسّر أن يتطلّب مناسبات لمواقع الآيات ما وجد إلى ذلك سبيلا موصلا (12). وعلم المناسبة (ويحسن تسميته أيضا علم السياق القرآني مأخوذ لغةً من: تسلوقت الإبل بمعنى : تتابعت)(13) علم مهمّ جدا قلّ اعتناء المفسّرين به لدقّته، إذ به يعرف قدر القائل فيما يقول ، وممّن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي من القدماء ، وقد قال في تفسيره :(أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط) (14)، ومن المحدثين نجد الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير) فقد اعتنى عناية فائقة برصد المناسبات والتساوق بين الآيات والسور . وقال الفخر الرازي في أوّل سورة البقرة :(ومن تأمّل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته .. إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار)(15) .

هذا ، وحديث العلماء القدامى كثير عن مناسبة السور بعضها لبعض ، لايحاط به ههنا (16) ويحسن أن نختمه بما قاله الزركشي :(وإذا ثبت هذا بالنسبة إلى السور ، فما ظنّك بالآيات وتعلّق بعضها ببعض ، بل عند التأمّل يظهر أن القرآن كلّه كالكلمة الواحدة) (17) ، وهذا القول المهمّ والدقيق هو ربط بين تناسب السور وتناسب الآيات ، ومنه يبدو ان تناسب الآيات وتعالقها هو أعظم شأنا وهو الحقّ ،لأنه الأهمّ في فهم القرآن وتفسيره وعليه تركّز أكثر اهتمام العلماء الذين فصّلوا الحديث في أنواع الترابط والتساوق بين الآيات (18) ، بما يثير الدهشة والإعجاب .

ومن أوضح الأمثلة على أهمية السياق اللغوي في بيان المعنى كلمة (بعض) التي هي في اللغة : الطائفة من الشيء ، والمشهور أنها تطلق على ما هو فرد من الشيء ، فيقال – مثلا– : محمد بعض القوم ، وفي السياق القرآني قد تكون دلالة (بعض) على الإفراد كما في آيات كثيرة منها : (قال اهبطا منها جميعا **بعضُكم** لبعض **عدو**) (طه 123) ، وقد تكون دالة دلالة صريحة على الجمع كما في الآية : (والذين كفروا **بعضُهم أولياء** بعض)

(الأنفال73) ، وكذلك في آيات كثيرة أخرى منها :(المائدة 51) و(الأنفال72)و(التوبة71) و(الصافات 27، 50) ، وفي هـذا ردّ واضح على من زعـم أن كلمـة (بعض) لاتـدل إلا على الواحـد ليس غـير (19).

ومن الأمثلة كلمة (الروح) ، التي لها في النصّ القرآني بسياقاته المختلفة عدّة معان ليس منها ذلك المعنى الذي تورده المعاجم وهو (مابه حياة الأجسام) أي النفس، ومن أبرز معاني هذاه الكلمة في السياق القرآني : الوحي والكتاب والقرآن ، كما في الآية المشهورة: (ويسألونك عن **الرّوح** قل **الرّوح** من أمر ربّي وما أوتيتم من **العلم** إلا قليـلا) (الإسـراء 85) ، والمراد بالرّوح هنا القرآن أو الوحي ، يدلّ على ذلك سياق الكلام لاسـيما مـابعد الآية ، فلاحق الآية :(ولئن شئنا لنذهبـنّ **بالذي أوحينا** إليك)(الإسراء86) ، ويعزّز هـذا المعنى ما ورد في مواضع أخرى من القرآن ، نحو الآية :(وكذلك أوحينا إليك **روحا** مـن أمرنا ما كنت تدري ما**الكتاب** ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا ...)(الشـورى52)، ويطلـق (الرّوح) في القرآن على كل مايوحي به الله تعالى إلى أنبيائه كما فـي الآيـة : (يـنزّل الملائكة **بالرّوح** من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا) (النحل 2). والغريـب أن مجمع اللغة العربية في معجمه (معجم ألفاظ القرآن الكريم) يفسّر الرّوح في آية (الإسـراء 85) بأنها (مابه حياة الأجسام)، متغاضيا بهذا عن مقتضى السياق وقرائنه القويـة فـي الدلالة على غير ما ذكر من معنى، ولو عاد شارح هذا اللفظ في هذا المعجم إلى تفسـير القرطبي مثلا لفطن إلى المعنى المراد في الآية.

ـ الترجمة والتفسير والسياق :

أصل الترجمة في اللغة التفسير والبيان ، فتفسير الكلام بلغته ترجمة له ، ومن هـذا سمّي الصحابي الجليـل ابـن عبـاس قديمـا بترجمان القـرآن بمعنى مفسّـر القـرآن (20) ، وذكر الزمخشري في (أساس البلاغة) أن كل ماترجم عن حال شيء فهو تفسرته. وسمّى نحاة الكوفة باب البدل في النحو ترجمة وتبيينا(21) ، لأنه يفسّر أويبيّن العموم في

اللفظ قبله و هو المبدل منه نحو الآية :(ولله **على الناس** حجّ البيت **من استطاع** إليه سبيلا).

ومن طرق شرح الألفاظ أو تفسير معناها المعروفة في المعجم : التفسير بالترجمة في مقابل التفسير بالمغايرة و التفسير بالسياق و المصاحبة ، فالثانية تعني : شرح معنى الكلمة بذكر أخرى تغايرها في المعنى ، كشرح (العلم) – مثلا – بأنه نقيض (الجهل) ، وأما الطريقة الثالثة فتعني ذكر ما يصاحب الكلمة المراد شرحها في السياق الاستعمالي المؤدّي للمعنى المقصود، وهو ما عبّر عنه فيرث بالتوارد أو التراصف:(collocation)، وذلك كتوارد ألفاظ مادة(عرب) مع عدة كلمات بحسب المعنى في المعجم العربي، فالمقصود بالسياق إذن ما يصاحب اللفظ في الاستعمال مما يساعد على إبانة المعنى، كقول ابن جني :(من قال إن اللغة لا تعرف إلا نقلا فقد أخطأ، فإنها قد تعلم بالقرائن أيضا، فإن الرجل إذا سمع قول الشاعر:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه **زرافات** ووحدانا

يعلم أن الزرافات بمعنى الجمع) (22)، فالقرينة هنا – ومسرحها السياق- هي مصاحبة أو توارد الزرافات مع الوحدان . أما التفسير **بالترجمة** في المعجم فيعني شرح الكلمة بكلمة أخرى أو بأكثر من ذلك ، وذلك كشرحها بما يرادفها أو ما يقارب معناها مقاربة شديدة كشرح النكاح بالزواج والمجيء بالإتيان والسكب بالصب وهلم جرا، أوكشرح الكلمة بعبارة مركبة كشرح (عرّبه) بتضعيف الراء بـ: علّمه العربية .(23)

والذي يهمنا هنا هو ترجمة الكلام نصوصا وكتبا ، والترجمة بهذا المعنى هي فن نقل الكلام المعبر عنه بلغة ما إلى لغة مطلوب فهم هذا الكلام بها (24) . والترجمة بمختلف أنواعها العلمية والأدبية والدينية يجب أن تمر بمرحلتين : الأولى الفهم الدقيق للنص المراد ترجمته ، ولايتم هذا الفهم الدقيق إلا باتباع المنهج السياقي في تفسير الدلالات ، وبدون هذا المنهج اللغوي العملي في الفهم والتفسير لا يمكن العبور إلى

المرحلة الثانية : وهي محاولة نقل فحوى النص من لغته إلى لغة أخرى ، وفهم النص الأصلي أمر لابد منه قبل ترجمته ، فسوء فهمه أو الخطأ في تصوره يؤدي حتما إلى الخطأ في الترجمة.

ومن أخطر المشاكل الدلالية في الترجمة اختلاف التوزيع السياقي للكلمات التي تبدو مترادفة في لغتين، إذ قد تعد مترادفة في معناها عند ترجمتها فتوضع إحداها في مقابل الأخرى في الترجمة، ولكنها قد تختلف في تطبيقات الاستعمال ، أو في السياقات اللغوية التي ترد فيها (25)، من ذلك – مثلا – عبارة: (il ne **faut** pas) الفرنسية تترجم إلى العربية بعبارة :(لا **يجب**) أو العكس ، فهذا خطأ شنيع ، فمعنى العبارة الفرنسية : لا يجوز أو لا ينبغي ، ومعنى العبارة العربية: أن الأمر غير واجب فقط ولهذا فهو جائز ،أي عكس العبارة الفرنسية تماما.

ومن هنا يلاحظ أن اختلاف المعنى في الكلمة الواحدة يُفَسّر على أنه اختلاف في التوزيع في سياقات متعددة ، ولذلك قلّما تكون العلاقات السياقية بين الكلمات متطابقة في لغتين، إلا إذا تم ذلك عن طريق الترجمة الحرفية (26) التي كثيرا ما توقع منتهجها في أخطاء شنيعة. وعلى هذا كان من أهم ميزات المنهج السياقي أنه يحدد مجالات الترابط والانتظام بالنسبة لكل كلمة، ممّا يعني تحديد استعمالات الكلمة في اللغة، وتحديد هذه المجالات يساعد على كشف الخلاف بين ما يعدّ ترادفا في اللغات، لأنه من النادر أن تأخذ الكلمات التي تعتبر مترادفة في لغة ما نفس السياق أو التجمّع اللغوي المماثل في نفس اللغة أو في لغة أخرى، وهو أمر لازم لمن يريد استخدام اللغة أو لمن يشتغل بالترجمة من لغة إلى أخرى (27).

والمنهج السياقي في التفسير عادة مايهتم ببيان الخصائص النحوية والصرفية ويستخدمها في تحديد السياقات التي تقع فيها الكلمة، (28)، وهذا أمر مهم جدا لايجوز إغفاله عند التفسير أو الترجمة، ومن هنا نفهم لِمَ تعجّ أمهات كتب التفسير بذكر المسائل

الصرفية والنحوية وتطبيقاتها الإعرابية في سياق تفسير الآيات ، كما يلاحظ في البحر المحيط لأبي حيان وأحكام القرآن للقرطبي والتفسير الكبير للرازي وروح المعاني للألوسي والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، فذكر هذه التفاسير للأمور النحوية والمبالغة في توضيحها أحيانا كان لوعي شديد من أصحابها بأنها تبع للغرض الأصلي وهو تفسير القرآن أو شرح آياته وتأويلها، ولا غرو بعد هذا أن كانت معرفة نحو العربية من أهم أدوات تفسير القرآن، قال الزركشي :(التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد (ص) وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من **علم اللغة والنحو والتصريف** وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ...) (29).

ـ ترجمة معاني القرآن الكريم

لقد وردت في القرآن إشارة إلى موضوع ترجمة معاني الوحي في الآية:(ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصّلت آياته أأعجمي وعربي) (فصلت 44) ، فهذه الآية تشير بطريقة ما إلى إمكان تفسير القرآن – أي الكتاب الإلهي – بغير اللغة التي أنزل بها ، ويتصل نظم هذه الآية سياقيا بأول آية في السورة :(حم تنزيل من الرحمان الرحيم، كتاب فصّلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون) (فصلت 1–3) ، فقوله :(كتاب فصلت آياته) بمعنى أنه موسوم بكونه عربيّ اللغة ، فحصل من هذا الأسلوب أن القرآن منزّل من الله مفصّلا عربيًا . فقد كان ردّ القرآن على مجادلات المشركين بأن القرآن عربيّ مفصّل الدلالة المعروفة في لغتهم ، حسبما ابتدئ الكلام بقوله : (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا) فحجّة القرآن في الردّ عليهم عمادها الفرض والتقدير أن يكون قد جاءهم الرسول (ص) بقرآن من لغة أخرى غير لغة العرب، أي لو أنزلنا على الرسول قرآنا أعجميا لقلبوا معاذيرهم فقالوا : لولا بُيِّنَتْ أو فُسرت آياته بلغة نفهمها، وكيف يخاطبنا بكلام أعجميّ، فالكلام جار على أسلوب الافتراض كما هو مقتضى حرف (لو) الشرطية . ومن هذا النوع في الاحتجاج قوله تعالى:(ولو نزّلناه على بعض الأعجمين ، فقرأه عليهم ما كانوا به

مؤمنين) (الشعراء 198)، أي على رجل ليس بعربي اللسان فقرأه عليهم بغـــير لغـــة العرب لما آمنوا ولقالوا لا نفقه نظيره (30)، وقد كان من جملة مطاعن المشـــركين فـــي القرآن أنه تقوّله محمد (ص) من عنده ، وقد بيّن الله تعالى بهتانهم في هذه الآية بأنهم إنما قالوا ذلك لأنه قد جاءهم بالقرآن رسول عربيّ ، وأنه لو جاءهم بهذا القرآن رســـــول أعجميّ لا يعرف العربية – وهو أمر خارق – لما آمنوا به . إذن القرآن جوّز إمكان تفسير أو ترجمة معاني الوحي الإلهي بلغة غير التي نزل بها بقصد فهم مضامينه كما في قوله :(ولو أنزلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصّلت آياته..) ، فالتفصيل ههنا جاء بمعنى التفسير أو الترجمة بلغتهم.

ونظرا لعقم ترجمات القرآن الحرفية والصادر جلّها عن الغربيين ، فقد عالج الأزهر هذا الموضوع منذ سنة 1929 بإشراف الشيخ مصطفى المراغي رائد فكرة ترجمة تفسير القرآن ، وقد أصدر بيانا ذكر فيه أنه قد أنشئت لجنة تعمل على تفسير بعض آيات القرآن نقلا عن البيضاوي والألوسي وغيرهما من مشاهير المفسرين، للقيام بترجمتها بدقة ووضوح على يد متخصّصين في الترجمة، وبيّن أن نظم القرآن العربي لاسبيل إلى نقل خصائصه، لأن هذا مستحيل استحالة قطعية، وأن ترجمة القرآن الكريم ترجمة تامة تؤدي من المعاني والتأثير ما تؤديه العبارة العربية ضرب من المحال (31) .

ـ <u>نقد ترجمة جاك بيرك للقرآن الكريم</u> :

لقد جانب المستعرب الفرنسي السياق القرآني كثيرا ولم يراع مقتضياته في ترجمته لمعاني القرآن ، وهذا ممّا أوقعه في أخطاء كثيرة بعضها جسيم ، من ذلك :

ـ <u>ترجمة معاني أسماء السور</u> : لا ريب أن معنى اسم السورة القرآنية مستوحى إمـــا من السياق العام للسورة وإما من أحد سياقاتها اللغوية، فيكون ذلك من باب دلالة الجـــزء على الكلّ، وعلى هذا يكون ضروريا العود إلى أحد السياقين لترجمة معنى اسم الســـورة بدقـــة، ولقد لوحظت أخطاء واضحة لدى بيرك في هذا المجال ، من أمثلتها :

<u>أولا:</u> سورة **الفرقان** ترجمها بـــ(critère) بمعنى المعيـــار أو المـــيزان ، والحـــقّ أن (الفرقان) ورد في السياق بمعنى (القرآن) ، الآية:(**تبارك الذي نزل الفرقان على عبـــده..**) (الفرقان 1) ، فهو مصدر مثل (القرآن) ، ولو جاز له أن يترجم معنى (الفرقان) كما

ترجمه لجاز له أن يترجم معنى(القرآن) أيضا بـــ(lecture) مثـلا بـدل (Coran) ، والغـــريب أنه ترجـم سـورة (القلم)بـــ(le calame) بـدل (la plume) مع أن معناه أوضح وأسهل في الترجمة من (الفرقان) الذي يحتمل سياقيا معنى غـير المعنـى الـذي ترجمه به، إذ معناه : القرآن الفارق بين الحق والباطل ، فجاء معناه من التفريق الحاسـم (la différenciation probante)، فلو ترجمه بـــ(**Forkanne**) لكان أسلم له ولكـان متّـسقا مع منهجه في ترجمة ألفاظ مثل **القرآن** و**القلم** و**الجـــن** و**الحجـر**، التـي نقلـها بأصواتها.

<u>ثانيـا:</u> سورة **الزمر** ترجمها بـــ(par vagues) بمعنى(الموجات) ، وهذا المعنـى غـير دقيق سياقيا، الآية :(**وسيق الذين اتّـقوا ربّهم إلى الجنّة زمرا**) (الزمـر73) ، فمعنـى (الزمر) ههنا وهي جمع (زُمرة) : الجماعة المتجانسة في المرتبة والمبادىء ، كأن نقـول مثلا : زمرة الأخيار وزمرة الأشرار، والمراد باللفظ في الآية : طوائف حسـب ترتيـب درجات إيمانهم وطاعتهم. ولـــهذا يصـحّ ترجمـة معنـى السـورة بـــ(**Groupes homogènes**) .

<u>ثالثا :</u> سورة **الذاريات** ترجم معناها بـــ(vanner) بمعنـى (ذرى) الفعـل أو (الـذرو) المصدر، وليس هذا معنى اسم السورة الذي جاء في صيغة صفة مجموعة كما في الآيـة: (**والذاريات ذروا**)(الذاريات 1)، فجاءت الصفة في الآية متعدية إلى المصدر من مادتـها الواقع مفعولا مطلقا للتوكيد، وهناك فرق بين التعبير بالمصدر أو الفعل أو الصفـة التـي قامت مقام الموصوف في الآية وهو (الرياح)، ولهذا كـان الصحيـح أن يـترجم معنـى الذاريات بـــ(**Les (vents) vanneurs**).

رابعا : سورة **النازعات** ترجم معناها بـ (tirer) ، وما قيل في(الذاريات) يقال هنا، ونقترح ترجمة معناها سياقيا بـ:(**Les arracheurs**) .

خامسا : سورة **عبس** ترجمها بـ(l 'air sévère) ، وهذا ليس دقيقا البتة ، فـ(عبس) فعل ماض يحكي حادثة وقعت للرسول (ص) ، فكان الواجب ترجمة معناه سياقيا بـ(**Il a froncé les sourcils**) ، مع العلم أن (عبس) معناه : قطّب وجهه ، جاء في مختار الصحاح:(وقطّب وجهه تقطيبا عبس) .

سادسا : سورة **العاديات** ترجمها بـ(galoper) ، والصحيح ترجمتها بحسب معناها الصرفي والدلالي في السياق بـ(**Les chevaux qui galopent**) ،قال القرطبي:(**والعاديات ضبحا** أي الأفراس **تعدو**، كذا قال عامة المفسرين وأهل اللغة، أي تعدو في سبيل الله فتضبح، قال قتادة **تضبح إذا عدت** أي تحمحم)(32).

ـ **ترجمة الألفاظ والتراكيب في السياق القرآني** : إذا كان بيرك لم يلتزم في ترجمته لبعض معاني أسماء السور القرآنية بسياقاتها أحيانا كما بيّنا ، فإنه جانب السياق كثيرا في ترجمته لمعاني المفردات والتراكيب ، ربّما بسبب تأثره بنقول المفسّرين وأصحاب المعاجم دون تمحيصها سياقيا ، والأمثلة في هذا المجال كثيرة جدا ، قد تستغرق كتابا ، وسنكتفي ههنا بعرض أمثلة واضحة على عدم مراعاته مقتضيات السياق اللغوي للنصوص القرآنية في الترجمة للمعاني :

أولا: ترجمة معنى كلمة (**الروح**) في الآية :(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربّي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، ولئن شئنا لنذهبنّ بالذي أوحينا إليك ..) (الإسراء 85-86): ترجم معنى الآية بـ :(on t' interroge sur l'**esprit** .dis :l'**esprit** est du ressort de Dieu et il ne vous a été donné de science qu 'une part bien chétive/ وهذه ترجمة حرفية الروح

لايفهم القارىء الفرنسي المعنى المراد له في السياق ، إذ المعـــروف لديـــه أن كلمـــة (esprit) تعني عادة النفس أو الفكر، وهو قد أشار في هامش الترجمة إلـــى أن الـــروح بمعنى: (l' âme) أي (النفس) ، وهذا لايفهم من السياق الذي يـــدل بوضـــوح علـــى أن الحديث يجري عن **الوحي** الإلهي ، ما قبل الآية وما بعدها ، وإلاّ ما معنى أن يـبرهن الله تعالى على أن الروح من أمره بالقول : (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك) ؟

وليس معنى (الروح) هذا –أي (الوحي)– غريبا عن العارف بسياقاته في القرآن ، إذ نجـــده في عدة مواضع منها : الآية : (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا..) (الشورى52) ، وقد قصد بالروح هنا القـــرآن خاصّـــة ، بقرينة عود الضمير في (جعلناه نورا) عليه ، وقد قصد بالروح مطلق الوحي الإلـــهي فـــي الآية : (ينزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا ..)

(النحل2) ، وقد علّل هذه الترجمة في الهامش بالسياق الحالي للآية أو ما يســـمى بأســـباب النزول ، فذكر أن الآية كانت جوابا عن سؤال ماكر للأحبار أو الحاخامات اليهود ، والـــذي يرجع إلى كتب التفسير يجد أن المعنى الأشهر من خلال سبب النزول هذا هو أنهم ســـألوه عن حقيقة النفس ، وإن كان سؤالهم يتضمن أيضا معنى الوحي ، أي أنـــــهم ســـألوا عـــن (الروح) عامة أي متضمنة المعنيين كما أشار إلى ذلك القرطبي في تفسيره ، ولو كان بيرك أشار في الهامش إلى معنى الوحي لأزال الالتـــباس ، وقـــد ذكـــــر صـــــلاح الديـــــن كشـــريد المعنـــين في ترجمتـــه التي نصـّـها: ils t'interrogent (o mohammed)sur: l'esprit) (le principe de la vie ou de la **revelation**) dis ...)/ والصحيح ســياقيا كما بيّنا هو الثاني .

<u>**ثانيا:**</u> ترجمه معنى كلمه **(مسّ)** في الآيه:(لا يمسّه إلا المُطهّرون)(الواقعة 79) بـــــ : (que **touchent** seulement les purifiés)./ ، بمعنى لا يامسه إلا المطـــــهرون ، وهذه ترجمة لا تراعي لا السياق الخاص ولا العام للفظ **(مسّ)** فـــي القـــران ، فالســـياق اللغوي الذي وقعت فيه الكلمة لا يشير إلى معنى اللمس ، إذ ورد قبل الآية قوله تعالى :

(فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم، إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون، لا يمسّه إلا المطهرون) (الواقعة76-79)، فالمتأمل في هذه الآيات التي ابتدئت بالقسم بمواقع النجوم، التي تنتمي معرفتها إلى علم الفلك الذي هو من أرقى العلوم العقلية وأعظمها شأنا، يجد أنّ ثمّة صلة – **سياقيا** – بين القسم والمقسم عليه في القرآن، إنها صلة العلم والمعرفة بأسرار هذا الكتاب الكريم المكنون كما يستكن اللؤلؤ في محاره وأصدافه، وقد أدرك شيئا من هذا ابن القيم فقال معلقا على هذا الترابط السياقي بين القسم والمقسم عليه في السياق : (وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه، أحدها : أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البرّ والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغيّ، فتلك هداية في الظلمات الحسية، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية فجمع بين الهدايتين....) (33) .

والسياق العام لكلمة (مسّ) في القرآن يدلّ على أنها لا تعني (اللمس) حيثما وردت في القرآن، فهي قد وردت بمعنى الإصابة حسّيّة أو معنوية، فالحسّيّة نحو قوله تعالى : (إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) (آل عمران 120)، كما قال : (وإن تصبك حسنة تسؤهم)، فورد المسّ بمعنى الإصابة كما هو واضح في الآيتين، ومسّ الكتاب في سياق الآية المترجمة هو بمعنى إصابته إصابة معنوية، أي فهمه وإدراكه، والمعاجم العربية تكاد تجمع على أن (المسّ) كـ(اللمس) في المعنى أي جسّ الشيء باليد، وهذا المعنى لا أثر له في القرآن . وإذا كان مسّ الكتاب إصابته أي إدراكه أي فهمه فهو مما يتوافق تماما مع معنى (الكتاب) عندما يقصد به الوحي أو كلمات الله تعالى، فالكتاب بهذا المعنى شيء معنوي لا مادّي، وبهذا لا يمكن لمسه باليد، وإذا أريد أن تكون له صورة مادية تلمس يجب أن ينسخ في صحيفة لكي يلمس عن طريق هذه الصحيفة قال تعالى : (ولو نزلنا عليك **كتابا في قرطاس** فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) (الأنعام 7)، ولم يقل : (ولو نزلنا عليك كتابا فلمسوه بأيديهم)

لأن الكتاب لا يلمس بل يمسّ ، وإنما لمسه يكون عن طريق **القرطاس**، وقال أيضا : (قل من أنزل **الكتاب** الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه **قراطيس** تبدونها وتخفون كثيرا منها) (الأنعام 91).

ونجد ظلالا لهذا الفهم الدقيق لمعنى (المسّ) في الآية :(لا يمسّه إلا المطهرون) لدى بعض القدماء، فهذا الفراء يقول : (لا يمسّه : لا يجد طعمه ونفعه إلا المطهرون، من آمن به) (34) ، وهذا الراغب الأصفهاني يقول في تفسير الآية : (أي لا يبلغ حقائق معرفته إلا من طهر نفسه وتنقى من درن الفساد) (35) ، وقال الشوكاني : (قال الحسين بن الفضل في تفسيرها : لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهره الله من الشرك والنفاق)(36).

وعلى هذا تكون الترجمة الأقرب إلى الدقّة من معنى(مسّ) في الآية هي:(**qu 'atteignent seulement les purifiés**) .

<u>ثالثا:</u> ترجمة معنى (**الذكر**) في الآية : (وإنه **لذكر** لك ولقومك وسوف تسألون)(الزخرف 44) بـ: . (c'est **un rappel** pour ton peuple et pour toi / demain vous serez questionnés) وهذه ترجمة حرفية لم تراع مقتضى السياق الذي يشير إلى أن **الذكر** في مثل هذا الموضع يعني الموعظة والاعتبار، كما في سياقات الآيات التالية: (والقرآن ذي **الذكر**) (ص1) ، و(إن هو إلا **ذكر** وقرآن مبين) (يس69) ، و(إن هو إلا **ذكر** للعالمين)(ص87) ، و(ولقد يسّرنا القرآن **للذكر** فهل من **مدّكر**) (القمر54) ، و(وصرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم **ذكرا**)طه(113) ، و(ولقد أنزلنا إليكم كتابا فيه **ذكركم** أفلا تعقلون)(الأنبياء10) ،و(بل أتيناهم **بذكرهم** فهم عن **ذكرهم** معرضون)(المؤمنون71) .

وعلى هذا كان من الأدق سياقيا أن يترجم معنى الذكر في آية الزخرف بـ (**prêche**)، أي الموعظة والاعتبار كما في الآيات التالية :(وجاءك في هذه الحق **وموعظة وذكرى**

للمتقين..)(آل عمران120) فالعطف هنا عطف تفسير ، ويبيّنه الآية:(هـذا بيـان للنـاس وهدى **وموعظة** للمتقين..) ، و(يا أيها الناس قد جاءتكم **موعظة** من ربكـم وشفـاء لمـا في الصدور)(يونس57) ، فوصفه للقرآن بأنه **موعظـة للمتقين** قريب من قولـه الآنف الذكـر :(وصرّفنا فيه من الوعيد لعلهم **يتّقون** أو يحدث لهم **ذكرا**) .

رابعا: ترجمة معنى (**المحصـنات**) في الآيـة :(**والمحصـنات من النسـاء إلاّ مـا ملـكت أيمانكم** ...)(النسـاء24) بـ:(...et encore les ((**préservées**)) d' entre les femmes. tenez - vous en à vos droites propriétés .) / هـذه الترجمـة عجيبة ! فبيرك ترجم كلمة (المحصنات) في الآية ترجمة حرفية لاتدل على المعنى الـذي يفيده سياق الآية ، وهو (**المتزوّجات**) ،ثم إن في الآية استثناء من حكم لـم يظـهر فـي الترجمة ، إذ المعنى السياقي بدءا من الآية التي قبل هذه الآية : (حرمت عليكم أمـهاتكم وبناتكم و... والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم..) ، فأين هذا المعنى من ترجمة بيرك المحـرِّفة للمعنى ؟ ! والترجمـة الأمينـة للمعنـى ههنـا هـي : (et les **femmes mariées sauf** ce que vous en possédez comme **esclaves**)

خامسا: ترجـمة قولـه تعالـى :(..**وأنـزل لكـم مـن الأنعـام ثمانيـة أزواج**..)(الزمـر6) بـ: (**il fit descendre pour vous huit demi-paires de bétail**) / ترجمة (أنزل) بالمعنى الحرفي لايؤدّي المراد منها في سياق النص القرآنـي دائما ، إذ معنى هذا الفعل ههنا :(خلق) كما في آيات أخرى نحو : (**وأنزلنا** الحديـد فيـه بأس شديد) (الحديد25) و(قل أرأيتم ما **أنزل** الله لكـم مـن رزق فجعلتـم منـه حرامـا وحلالا..)(يونس59) ، وقد تنـبّه إلى هذا كثير من المفسرين ، قال الشوكاني :(**وأنزلنـا** الحديد أي **خلقناه** كما في قوله **وأنزل** لكم من الأنعام ثمانية ازواج والمعنى أنه **خلقه** مـن المعادن وعلّم الناس صنعته):(37).

كما أن ترجمة معنى(**ثمانية أزواج**)بـ(**huit demi-paires**) فـي الآية غير دقيـق ، إذ لايدلّ على أن الثمانيـة أفـراد مـن الأنعـام مؤلفـة مـن زوجـين ذكـر

وأنثى، والأدق ترجمة هذا التعبير بـ: (**huit éléments de couples de bétail**) وكانت الترجمة حرفية أيضا للفعل (أنزل) في الآية :(ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء ومن قال **سأنزل** مثل ما **أنزل** الله) (الأنعام 93) ، فقد ترجمها بـ : (quoi de plus inique que de fabuler sur dieu un mensonge ou de dire:il m'a été révélé ou bien :je vais faire **descendre** l'analogue de ce que dieu a fait **descendre**)/وهذه الترجمة – فضلا عن أن فيها عدم الدقة في نقل المعنى إلى الفرنسية عموما – فهي حرفية لم تتوخ المعنى المقابل للفعل (أنزل) في الفرنسية حسب هذا السياق ، أي في(**سأنزل**) فمعناه : (سآتي ..) أو(سأقول..) كما في الآية: (لونشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلاّ أساطير الأولين) (الأنفال 31)، وليس معناه كمعنى (أنزل الله) وإنما جيء بالفعل (أنزل) مسندا إلى البشر ههنا وليس معناه كمعنى الذي بعده، لأنه جاء في سياق المشاكلة أي (سأنزل **مثلما** أنزل)، قال القرطبي إن معنى سأنزل : سأظهر ، (38) ، وقال ابن الجوزي إن معناه سأقول ، واستشهد بقول الزجاج : (وهذا جواب لقولهم : لونشاء لقلنا مثل هذا) (39) .

ـ ***ملحق عن ملاحظات بيرك عن ترجمته للقرآن الكريم :***

لعلّ من المفيد في آخر هذه الدراسة المبتسرة عن موضوع ترجمة القرآن عامّة ، ونقد ترجمة بيرك في ضوء المنهج السياقي خاصّة ، أن نورد بعض الملاحظات التي أبداها بيرك نفسه عن محاولته الترجمية هذه ، في مقابلة نادرة مع صحيفة **القبس** الكويتية بفرنسا عام1989م قبيل صدور الطبعة الأولى منها بباريس، وقبل وفاته بسنوات قليلة ، وكان ممّا ذكره في هذه المقابلة الصحفية :

ـ أنه بدأ ترجمته بعد تجاوزه الستين عاما ، أي منذ بلوغه سنّ التقاعد ومغادرته لمنصب أستاذ التاريخ الاجتماعي للعالم الإسلامي في الكولاج دو فرونس ، وأنه انزوى في بيته الريفي بفرنسا لمدة تربو على الثماني سنوات تفرّغ فيها لترجمة القرآن الكريم ، وبضبط

بيرك أنه بدأ ترجمة القرآن في هذه الفترة المتأخرة من حياته لسببين : **الأول** : الخوف من هذا العمل ، فآثر أن ينتظر حتى يزداد نضجا ، ويكون مؤهّلا لتقديم ترجمة جيّدة وأمينة ، وكذا الحشمة والخجل من نصّ عظيم مثل النصّ القرآني ، إذ لم يتجرّأ على الإقدام على الترجمة من دون أن تكون عوامل المعرفة بالقرآن وبالإسلام قد تعمّقت من خلال دراساته المتواصلة ، التي تجعله في مستوى ترجمة هذا النصّ ، فلا يكون أي تقصير في النصّ الفرنسي الذي يتوخّى تقديم القرآن بكل أبعاده اللغوية والروحية إلى لغة أخرى . **الثاني:** سبب شخصي وهو أنه عندما تقدمّت به السنّ بدأ يفكّر في الحياة بعد الموت ، فوجد في القرآن كثيرا من الاطمئنان الروحي الذي كان يسعى إليه ، ووجد سلوى له فيه، وفي ترجمته شيئا من الاستجابة إلى عالم ما بعد الحياة.

ـ أن الترجمات التي قدّمت حتى الآن إلى اللغة الفرنسية أنجزها مترجمون يحسنون الفرنسية أكثر من العربية أو العكس ، ولذلك كان في ترجماتهم بعض الخلل والنقائص ، أمّا هو فيزعم أنه يتقن اللغتين ، لأنه فرنسيّ قحّ ودرس العربية لسنوات طويلة ، ولعلّه يتقنها أكثر من المستشرقين الفرنسيين الآخرين الذين ترجموا القرآن قبله ، وبهذا كانت معرفته بالعربية والفرنسية متوازنة ، وأن هذا ساعده على تقديم ترجمة جديدة تتلافى نقائص الترجمات السابقة فكانت أفضل من أي ترجمة قام بها مترجم أجنبي .

ـ أن أهم المراجع الأساسية التي استعان بها في ترجمة للقرآن عشرة من كتب التفسير التي كانت مصاحبة له أثناء عمله هذا ، وكان أوّلها تفسير الطبري وتفسير الزمخشري من التفاسير القديمة ، وتفسير القاسمي من التفاسير الحديثة .

ـ وعن الشروط الواجب توفّرها فى مترجم القرآن والقواعد التى ينبغى عليه وضعها بصب عينيه وهو يترجم القرآن إضافة إلى توفّر البعد الروحي ، يرى بيرك أن هناك

شرطين آخرين هما البساطة والجمال ، إذ ينبغي على النصّ الفرنسي أن يكون بسيطا في ظاهره عميقا في مضمونه، أما الجمال فعلى المترجم أن يضع نصب عينيه في النصّ الفرنسي جمال القرآن العالي المستوى ، فكم عالج القرآن مواضيع عديدة ، كوصف الطبيعة والظواهر الكونية والنفسية والإنسانية بأسلوب دقيق في المعنى وجميل ومتين في البناء اللغوي .

ـ وعن ماهية النصّ القرآني يرى بيرك أن القرآن نصّ فلسفي أدبي لاهوتي ، ذو بناء لغوي أسلوبي فريد من نوعه حيّ ومتكامل ، وهو ما يسمّونه بالإعجاز ، فالقرآن علاوة ذلك نصّ قديم وحديث في وقت واحد ، أي أنه حديث بالنسبة لكلّ زمان ، فهو يمتلك دينامية أزلية ..وهذا هو الإعجاز .

ـ وإجابة عن سؤال : هل يمكن للغة الفرنسية أن تحل محل اللغة العربية في تقديم كل عوالم القرآن الكريم، فمثلا عند قراءة سورة البقرة يشعر القارئ بنوع من الرهبة والخشوع، فهل بإمكان اللغة الفرنسية أن تحل محل اللغة العربية في ذلك ؟ قال : لا أبدا، لا يمكن أن تحل لغة محل أخرى، ولكن هل تستطيع اللغة الفرنسية أن تقدم الرهبة والقشعريرة نفسهما اللتين تهبنا إياهما لغة القرآن في النص العربي ؟ أقول نعم إن اللغة الفرنسية قادرة على ذلك وقادرة على تقديم الأجواء الروحية الخاصة بسورة البقرة أو بغيرها من سور القرآن. وهذا بالطبع يعتمد بالطبع على جودة الترجمة ...

ـ وعن السمات الأساسية التي جذبته في النصّ القرآني والتي يعتبرها من مميزات القرآن دون غيره، يرى بيرك أنها تتمثل في هذا المزيج من البساطة والعمق، فالقرآن بشكل عام هو كلام بسيط .. لأنه ليس بكلام معقد بل كلام سلس وبسيط، ولكن في كل ومضة قرآنية أو جملة من جمله هنالك طبقات كثيرة من المعاني .. فلو اقتصرنا على الطبقة السفلى من المعاني، أي على الماورائية المباشرة للنص، لما كان باستطاعتنا أن نفهم مضامين النص كله، ومن هنا علينا أن نفهم الطبقات العليا المتوغلة فى ماورائية النص فعندها فقط

نستطيع أن نفهم المعنى الكلي للقرآن، وأعتقد أن هذا عامل صعوبة كبيرة يصادفنا عند نقلنا للنص القرآني إلى اللغة الفرنسية، هذا علاوة على أن اللغة الفرنسية ليست غنية بالمفردات مثل اللغة العربية، بل إن اللغة الفرنسية غنية بالتراكيب اللغوية، إن غنى اللغة الفرنسية يتجسد في التراكيب، وإن المضامين والتصورات التي ينتجها كل تركيب ويلفظها جانبا قادرة على تكوين هذا المعنى الشامل والمزدوج الذي يتصف به النص القرآني . إن هذه الأفكار هي نتيجة للبحوث اللغوية الجديدة التي يطلق عليها (البلاغة الجديدة) والسيميوتيك والسيمونتيك، لقد استخدمت علم السيميوتيك الذي أعانني كثيرا في فهم ترجمات بعض الكلمات ذات الدلالات الواسعة والصعبةفي القرآن مثل كلمة (الكافر) ... وهنالك كلمات أخرى وألفاظ كثيرة كانت بحاجة إلى دراسة وتفسير بالاستعانة بالعلوم اللغوية الراهنة .

ـ وإجابة عن سؤال : هل وضعتم مقدمة للترجمة التي قمتم بها توضحون بها كل هذه الإشكاليات التي تخص النص القرآني وترجمته ؟ قال : نعم لقد وضعت مقدمة بمئة صفحة توضح الكثير من الجوانب الخاصة بالنص القرآني، لكن الفكرة العامة لهذه المقدمة كانت متركزة في نقطة أساسية هي أن البعد التاريخي موجود في القرآن ...

وتعقيبا على هذه الملاحظات التي أبداها جاك بيرك حول ترجمة القرآن عامة وترجمته هو خاصّة (40) ، أقول إن بيرك لم يستفد إلاّ قليلا من معطيات السيمونتيك (علم الدلالة) والسيميوتيك (علم الرموز) ، في ترجمته لمعاني القرآن المفردة أو المركّبة ، وأهمّها – كما ظللنا نبدأ ونعيد – منهج السياق ، والدليل ما رأيناه من أمثلة نقدية ، ولم نشأ التوسّع فيها على كثرتها ، لأن الحيّز المتاح ضيّق ، وقد يكون التوسّع والتفصيل مادة لمشروع كتاب في هذا الموضوع بإذن الله تعالى . أمّا هل تستطيع الترجمة الجيّدة والأمينة أن تجذب القارىء الفرنسي إلى مناخات القرآن الحقيقية التي نراها في اللغة العربية مناخات القدسية .. الصوفية ..الرهبة.. جمالية اللغة ..شاعريتها .. انسيابها التلقائي .. كلاسكيتها الحية المتعالية ، أي هل تستطيع ترجمةٌ فرنسيةٌ إبداعية أن تقدّم كلّ ذلك مرّة واحدة إلى

القارىء الفرنسي ؟ فالجواب كلا وألف كلا ، لان الإجابة بنعم تعني ان بيان القران في طاقة البشر ، وذلك محال محال ، فأنّى لبشر مثل هذا البيان .

الهوامش:

1ــ انظر: المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، د.محمد صالح البنداق، دار الآفاق بيروت،ط

2ــ السابق ص 89 ،95 .

3-**Le Coran** (essai de traduction de l'arabe ..) jacques berque , Sindbad

4ــ البرهان في علوم القرآن للزركشي ، دار الجيل ،بيروت ،ص175/2 .

5ــ علم الدلالة ، بيير غيرو ، ترجمة د. منذر عياشي ، دار طلاس ،دمشق 1992، ص157.

6ــ علم الدلالة ، د.أحمد مختار عمر ، مكتبة دار العروبة ، الكويت ط1 ، 1982 ، ص68.

7ــ السابق 69 .

8ــ بدائع الفوائد ، ابن القيم الجوزية ، إدارة الطباعة المنيرية ، القاهرة ،ص119/4 .

9ــ الاتقان في علوم القرآن للسيوطي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ط4 ،1978 ص 225/2

10ــ أنظر :الإتقان ص 138/2 والبرهان ص35/1 .

11ــ أنظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر بتونس،1984 ، ص 79/1 والبرهان ص37/1 والإتقان ص138/2 .

12ــ أنظر: التحريروالتنوير ص81/1 والبرهان ص37/1 والإتقان ص138/2 .

13ــ معجم المصباح المنير للفيومي (س و ق) .

14ــ البرهان ص35/1،36 .

15ــ الإتقان 2ص/138 .

16ـ انظر: الإتقان 2ص/142- 145 .

17ـ البرهـــان ص39/1 .

18ـ انظر: السابق ص40/1-50 والإتقـــان ص139/2-144 .

19ـ من بديع لغة التنزيل ،د.إبراهيم السامرائي ، مؤســسة الرســـــالة ، بـــيروت ، ط1 ، 1984 ، ص127

20ـ انظر:مناهل العرفـــان في علوم القـــرآن للزرقاني، دار الفكـــر ،بيروت ط1 ، 1996، ص 78/2 .

21ـ المصطلح النحوي ، د. عوض حمد القوزي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائـــر 1983 ، ص163، 164 .

22ـ الخصائص لابن جني ، دار الهدى ، بيروت ط2، ص 72/2 .

23ـ انظر االمعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، د. محمد أحمد أبو الفـرج، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1966، ص102-116 .

24ـ الترجمة العملية لمحمد خليل فرحات ، دار الكتب الحديثة ، الكويت ،1994، ص7 .

25ـ أنظر علم الدلالة لأحمد مختار عمر ص254-256 .

26ـ انظر : الســـابق ص 76 .

27ـ انظر: الســـابق ص 78 .

28ـ الســـابق ص76 .

29ـ البرهان في علوم القرآن، ص 13/1 .

30ـ تفسير القرطبي ص 13 / 139 .

31ـ المستشرقون وترجمة القرآن الكريم ص73 .

32ـ تفسير القرطبي , ص153/20 .

33ـ التبيان في أقسام القرآن لابن القيّم الجوزية ، دار الفكر بيروت ،ص 138 .

34ـ معاني القرآن للفراء ، عالم الكتب ، بيروت ، ط2 ، 1980، ص 129/3 .

35ـ معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني 317 .

36ـ فتح القدير ص 5 / 160 .

37ـ فتح القدير ص 5 / 178 .

38ـ القرطبي ص334/2 .

39ـ زاد المسير ص86/3 .

40ـ صحيفة القبس الكويتية، ع 25-1989/2/26م .